

العنف ويقول الأموات

قصة بقلم محمد شكري

تلك هي عادته في جميع الفصول .

استمر في رفاهينه حتى قبيل الحرب الاهلية الاسبانية . وذات ليلة راوه نائما على عتبة متجر (جران باريس) . وادرك الناس ان بشير افس .

وحدثت ضجة صغيرة حول بشير فتخلى السيد جيلالي عن الحديث . ورأيا شابا وقحا يحجب بظله عمدا الشمس عن بشير الجالس على الارض .

اخذ بشير يدمدم ويلوح بيديه . لكن الشاب عنيد ، يضحك ، ويردد :

— أه ! يا بائع الاموات ، يا آكل بقول المقبرة ، يا من يشتهي الاولاد ، يا حامي القطط ، يا آكل الدجاج الميت ...
ونار بدري فامسك به السيد جيلالي :

— اجلس ، وانتظر ماذا سيحدث ...

— اية اهانة هذه توجه لانسان ، حتى ولو كان يرتد الى بدائيته ، ويفكر بعقله القديم ، المدفون في اي انسان ، مهما يبلغ من سواء ، وذكاء ، وعقلانية .

وبارتداء مصروع احاط بشير الساقين بذراعيه ، فزعق الشاب ، ووقع ... وبعض بشير بسادية بطة الساق المزغبة ، المشتهة من زمان : (يا لثغب الاخود الفتى في نظر لوطي يتذكر قمة لذته المفقودة : انه وبر الخوخ المدغدغ للشمفتين) .

وتشكلت حلقة من النظارة . وبشيء من العنف انتشلوا الشاب . وبدأ بشير كما لو انه في الذروة التي تملأ الفم بالسيل اللذيد .

— هل ألك ... ؟

— لا . انما الرعب هو الذي ألمني .

وفهقه بشير بهستيرية . وبدأ وجهه مثل عجوز صيني : فمسه خاو من الاسنان ، وعيناه مجمعتان غامقتان ، وشعره خفيف في لون سحابة تمر تحت الشمس . وساد الهدوء حول بشير . ولم تنزل دموع الانتصار ، والفرح ، واللذة ، تنفرط من عينيه الصغيرتين المدورتين . وبين لحظة واخرى يضحك بصمت ، كسمكة تفتح فمها وخياشيمها في الماء .

وظل هناك بعض الذين شاهدوا الحادث يضحكون ، ويقصون على الاخرين ...

وقال بدري :

وبعد يا سيد جيلالي .

— ومن اجل الاتفارقة عادته بدأ يلتجئ الى المجانية والذاتية . اكتسب عادة الذهاب الى المقبرة ، فيقطع منها بعض البقول ، ويطحها مع الطعام على رمل الشاطئ في الليالي التي تذكره بكل شيء : (سوسانا ، الجواد ، وفندق سيسيل) . فهو يعتقد انه ينتقم من البشر حين يأكل بقولهم . لقد خسر بداية حياته ، فلا شيء يهيمه حين يخسر نهايتها . انه ليس آسفا على شيء ، لان العادات التسي ألفها قد شاخت معه ، الا ان يشار بعنف ، كما حدث له منذ لحظة مع الشاب الامرد .

وصمت لوهلة ، ثم اضاف :

اخرج بشير حفنة من مسحوق التبغ من جيبه وبدأ يلغها في قطعة ورقة يانصيب . وسأل بدري :
— لماذا في ورقة يانصيب بالذات ؟
وقال السيد جيلالي :

— هذه عادته منذ ان فقد ثروته ... فهو يتخيل ان ورقة اليانصيب الخاسرة بديل جنيه انجليزي ، او دولار ، او مائة بسيطة او الف فرنك . ففي شبابه باع ضمن ميراثه الكبير قطعة ارض للتصلية (...) . والمقبرة المثلثة اليوم مقطعة منها . اتهمه الناس بالكفر . واخذوا يزعمونه : « لقد بعث ارض اجدادك يا بشير ! » ويجيبهم هو بسخرية وتحد : « أنا بعثهم أمواتا ، أما انتم فستسيئونهم احياء ! » . صار بشير تريا . وحصل على الحماية الانجليزية ، وحجز غرفة في فندق سيسيل ، واشترى جوادا ، ومسدسا ، وأعطيت له رخصة التسلح بسهولة . وأحد يهدد الناس باطلاق الرصاص عليهم . لكن من يعرف منهم كيف يتلمقه يمنحه بعض المال . صاروا يخشونه ، ويتقبلون احيانا اهاناته بمختلف تصرفاته . وفي الليل يذهب الى كباريه « امريال » . تستقبله سنيورا روسيتا بخوف واحترام ... وبرقة تقول له :

— سنيور بشير ... حاول أن تعاملها برفق هذه الليلة . ويقهقه بشير ساخرا للحظة ، ثم يامرها :
— أين هي ؟

وناتي سوسانا متبرمة ، فيجذبها اليه ، ويعانفها بوحشيه . ولا يستطيع احد الرواد ان يفتح فمه امامه . ياخذها الى حجرة الحب ، ويطلب اعلى انواع الخمر : (ايس هناك يا سنيورا روسيتا اجود وابهظ لثمن من هذه الزجاجاة ؟) .

— (لا يا سنيور بشير ... انها ائمن المشروبات عندنا) .

وقليلا ما يفادرها من غير ان يتركها تنتحب . ومع الايام تعودت سوسانا على عنقه الوحشي ، وشذوذه الجنسي ، فلم تعد تشكو ابدا لصاحبة المنصف . ثم ان سخاؤه يدفع غيره حتما الى الاحتمال . حتى الطفل الصغير اصبح يعرف من هو بشير . وفي النهار يأتي الى السوق الداخلي ، ويسلم زمام جواده الى احد المتسابقين على خدمته . يدخل مقهى سنترال ، واذا رأى هناك من يعرفه يقهقه معه لحظة بصخب وهو واقف كمليونير . ثم يجلس وحيدا والوجوه تندش نحوه ! يخرج ورقة جنيه انجليزي ، او دولار ، او مائة بسيطة ، او الف فرنك ، وكيس التبغ ، ويلف سيجارته فسي الورقة المالية . وتتمطط العيون . وقد يمر احدهم قدامه فيقول بعقلية الاطفال : « يحييا بشير ! » ويقهقه بشير كمبراطور روماني يلهو ... ثم يمج من سيجارته الضخمة ذات الدخان الكثيف . ويقترب منه متسول مسا فيعطيه قطعة نقدية صغيرة بكبرياء . ويفعل مثل ذلك مع رجل البخرة الذي يأتي كل يوم ليطرد من حوله الشياطين ، ويطمس العيون الشريرة : (اللهم صل على المصطفى ... جبيننا محمد جد الشرفا) . وفي المساء يتجول بجواده عبر شاطئ البحر الخالي ، ثم يمارس العابا فروسية مجنونة . وقبيل الفروب يخلع ثيابه ، ويسبح بعيدا جدا ، وجواده على الشاطئ .

- هذا هو بشير . لقد اصبح اكثر وحدة : فاقداً معنى الزمان والمكان . اما حينئذ الى الاماكن التي الفها فانه يرتادها بحكم العادة : من المقبرة الى الشاطئ ، ومن الشاطئ الى السوق الداخلي . وفكر بدري : ذات زمان لن تكون هناك ارض للقبور ، فماذا يحدث لو يبتعث بشير في ذلك العالم ... ؟ فهل سيواجه احدهم ، ويحاول ان يجيز عليه مباشرة ؟

اندفع بدري مع المرعيين نحو المقبرة . وسمع احدهم يلح :
- اطلبوا الشرطة .. لا تركوه يذهب .. انه سيعود فيما بعد ليحفر على القبور .
وسال بدري شاباً عند الباب رآه يشرح لاحدهم ...
- ماذا يحدث هنا ... ؟
- شيخ اسمه بشير يريد ان يجعل من المقبرة مدفننا لحيوانات مهيئة .

ورأى بدري بشير جالسا على حافة ضريح والقط الميت عند قدميه ، وحفرة ، وخشبية استعملها للحفر . ظل بشير صاماً .. ينظر الى الجمع ، والجمعة الصغيرة المرفطة . وبعد لحظة نهض وادار لهم ظهره . وراوه يخرج عضوه ويسقي ...
- ايه ! ماذا تفعل يا بشير ؟
صمت .

- هل نعمته ... ؟
- لا . ستكون شاهدين فقط على ما يفعل .
- انه مجنون ، فلا ينبغي ان نلومه .
- والحارس اين هو ؟
- هذه مقبرة لم يعد بها من حارس !
- لا بد ان يكون قد دفن هنا كثيراً من القبط الاخرى .
- ربما .. فقد سمعت عنه اشياء ... ولم اصدق حتى وجدني الان ارى بنفسى .

- الناس الذين هم من قبيله يقولون بان ارض هذه المقبرة مورثة عن اجداده .
وبانتفاضات فطرت بشير اسفنجه ، ثم جلس على حافة الضريح المبلط : (ضريح الانسان المحظوظ) .
- اني اعجب لهدونه الكئيب ... فهو يتصرف كما لو ان كسل شيء قد اعد من اجله .
- ليس هناك من هو اكثر حربة من المجنون عندما يجد الفرصة ليتصرف .

- نعم انه عجيب ، هدوء المجانين .
ويفكر بدري : هذا هو منتهى السقوط ، ولكن الفلق الاعمسى البدائي يبقى حيا . وهو ايضا مصدر لذة للذات التي لم يعد في الامكان انقاذها .
ويخرج بشير ورقة يانصيب مدعوكه ، ويلك سيجارته الفليضة الكثيفة .

- سيضطر الى افراغ فضلاته الفليضة على مرأى منا اذا ظللنا نحاصره .
- انه لا يرانا ، وينتبه الينا ، الا عندما نهدده .
- هو يفهمهم بان الانسان اذا مات انتهى . الانسان والحيوان سيان في الموت .

- نعم ، فماذا يهم حين يدفن فظ الى جانب انسان ؟
- لا شيء .
- لقد دفعنا لنفكر باشياء لم نكن لتخطر لنا لولاه .
- نعم . انه يجعلنا نفكر في ذواتنا من خلاله .
وسقطت قطرات كبيرة من المطر كتلك التي تفاجيء الناس في ايام ابريل . وبدأ يخنفي بعضهم ، ويسقط المطر بفزارة فيحدث فرار . وبدأ بشير كتمثال نحاسي على الضريح . وظل بدري واقفا تحست

شجرة الصفصاف . وفكر في طفولته :

في سنة ١٩٥١ عدت الى طنجة . غادرتها اسرتي سنة ١٩٤٤ الى نطوان . متعباً نمت ذات ليلة صيف على عتبة دكان . وفي الليل ايقظني صبي بانس مثلي : « انهض فان دورية البوليس نقبض على كل مسرد . وتبين لي ان حداني ، وستين بسيطة ، وبعض السجائر ، والوفيد ، وحى منديلي الفذر قد اخفت ... وتبعت الصبي مصعوقاً : (لكن ، اهكذا يفعلون هنا في الليل ؟) . وانجتها الى هذه المقبرة بالذات . وقلت للرفيق : (الذي قدرت انه في مثل عمري) .
- الله يلعن دينهم ... احدثوا مني كل شيء .
- انهم احياناً يقتصبون عنوة ، اذا لم يجدوا ما يأخذونه من الجيوب .

ومننا هناك في زاوية اقصى المقبرة .
خلت المقبرة . واتبته بدري لحركة بشير : نهض واخذ يتسم الحفر .

وتذكر بدري اول دفن في حياته :
اخي الصغير يبكي بعياء .. لا يكف عن الطلب : (خبز ... اعطوني خبزاً ... اعطوني ...) .
دخل ابي .. ملامحه يشوهها انفضاب .. كانه يتشاجر في صمت مع شخص وهمي .

سأل عن امي شاتماً ايها . لم يجبه احد . اخي الصغير يبكي ويكي بمرض . انا خائف من ابي كهادتي . وانزوي في ركن ، واتقرص ، وافكر في امي : (اين هي لتعرض .. انها على الافل نقاوم الجلد عنا .. واحياناً نترك اثار اظافرها على وجهه ، وعنقه ، ويديه ، ثم تلاحقنا حيث نلوذ) . السائل الحار يبلل فخذي .. بنطالي القصير يلصق .. نبضات قلبي .. تنفسي .. الحمى .. الاغماء يكساد يفشاني . لم اعد ملكاً لنفسي . وصاح ابي باللهجة البربرية الريفية :
- اسفد ، أشد يماش) .
اسكت ، لتاكل امك .

وزاد صراخ اخي الصغير فهاجمه ابي . ومثلما يلوي المرء السدادة في عنق الزجاجة لوى ابي عنق اخي الصغير . وتدفق الدم من الفم الصغير المحموم .

انا لا اقدر ان اصرخ . ان يدا وهمية تخنقني . وتبادل ابي نظرة بيني وبين اخي . وانفلت من بين يديه الى الخارج . صراخه البربري يلاحقني كصدى يجاوب راکفا الى الابد : - (اراحد ايامشوم) :
نعال يا مشوم !

ووجدتني بعيداً في الشارع ألهمت كحيوان يفر من الحظيرة . وعادت امي من المدينة فوجدتني انتظرها في الطريق . وابكي مثل اخي . بدأت تشبثان بيدها المعروفة . انها لا تصدق رعبى . هي تحسبني ابالغ . فانا اخشى ابي لفرط ما يجلدني بحزامته العسكرية . ولاول مرة افكر : ليتني ولدت بلا اب . وفي الدار سمعت ابي يهدد امي : (سافلتك اذا انت لم تكتمي ما حدث) . ان كلماته البربرية لم تزل تطن في اذني .

وفي الصباح جاء رجل الى منزلنا ، وغسل اخي ، مثل سمكة صغيرة لا قيمة لها يفركها رجل بانس ، ثم كفته ، ووضع على سجادة من الدوم ، ان سحنته مثل سحنة ابي ، كلاهما يخيفني : فهكذا سيقتلني ، وذاك يفلسني ويلفني في فماش ابيض .

مشيت وراء الرجل ، وابي . وفي الطريق عاودني البكاء في صمت . لقد عرفت ان اخي جاء من امي ، وابي . ولكني لا اعرف الى اين يذهب به الان هذان الرجلان السارقان ! في البداية وجدت اخي شيئاً صغيراً يراحمني في امي ، لانني البكر . ولكني لم اعد اكرهه عندما بدأ يطلب نجدتي ، ويتركني اسيطر . ثم بدأنا نقتسم لذة الختان المشترك . وبين لحظة واخرى يلتفت الى ابي كانه يتوعدني انا الاخر . ووصلنا . وفي مكان ما ، قرب ذلك السور بالذات الذي ترمم نصفه ، رأيت الرجل البانس يضع جثمان اخي في الحفرة التي حفرها ابي .

وفكرت حينئذ : ذات يوم سيحضر لي ابي انا ايضا حفرتي . وتأمل بشير الحفرة لحظة ، ثم اخذ جثة القط ، واودعها برفق . وبدأ يهيل التراب فأحس بدري بقلبه يخفق بنفس عنف الماضي الكئيب : (ان التراب يهال على جثمان أخي) . وتكونت ريوه فراح يسويها بيديه : (كذلك رأيت ابي يفعل بغير أخي) . ولم ينتبه بشير حتى لبدرى الذي يراقب ما يحدث : (ان كل شيء يذكر بدفن أخي الذي لسم يسمرق طويلا) . نفس المدة التي تكفي لدفن حيوان صغير . ان جثة القط تختلط الان برميم أخسي . وغدا ستنمو هناك نفس البقول : (بقول الموت المشترك) . وظلت الامطار تنساقط بعنف .. ولكن بشير ينتصر على الناس ، والامطار . ان الصمود يقهر حتى الموت الذي هو الزمن الحي .



يوم شمسي . الناس يستيقظون في الشوارع كما لو انهم ناموا فترة الشتاء كله . ان اسراب السنونو في السماء تؤكد لهم صحو هذا اليوم المبود . يفركون انفسهم : (ان الخفافيش خارج الكهف) . يتحدثون بمرح . يشيرون الى الشمس : (ان ميتولوجية الذاكرة تتناوب في عقولهم) يصفون هذا اليوم كما لو انهم لم يحيوا مثله ايدا . الرجال ينظرون الى وجوه النساء ، وصدورهن ، ومؤخراتهن ثم يشبتون نظرهن جيدا على استدارة السروال النحائني ، والمشد من خلال شفافية ضيق تانيرهن . النساء ينظرن بسرعة شمولية ، ولكن عدسنتهن لا تغفل حتى عن زر غير مفعول . قالت لي احدهن ذات يوم : (انكم انتم الرجال لا يمكن ان تخرجوا الى الشارع دون ان نرى فيكم ما يلت انظارنا) .

خطواتهم سريعة . يتوقفون على عجل . يستأنفون مشيتهم كأنهم نسوا شيئا ، او كأنهم مصابون بالاسهال . انهم دائما على موعد في مثل هذا اليوم المشرق . فهم لا يطيقون الانتظار . مستعدون دومما ان يفضبوا في وجه من يعكر عليهم صفاء هذا اليوم . ويجد بدري نفسه بينهم يمشى بلا هدف في « السوق الكبير » . وتبر امامه شابة فينظر الى ساقها : « يا لزغب العنزة ! » سمعت ذات يوم ان الزغبات شهوانيات جدا . ولكني لا احب امرأة ذات ساق عنزة . فانا لي زغبي . ثم الا يكفي شعرهن الخفي ، الكت كالحلفاء .. ؟ وصدمه احدهم من الخلف :
- اعتذر .. اني ...

وهز له بدري راسه . وبدأ اخرون يتصادمون . وراهم يتجهون نحو جادة « فندق الشجرة » . وذات لحظة افلتت اذن ففة من يد امرأة اسبانية . وتدرج نصف محتواها : طماطم ، بطاطس ، بيض ، هليون ، شمندر ، محار ... وصاحت المرأة في وجه الشاب : - ايه انت ! اكون اعمى .. ؟ ما احمقهم ! فاذا جن احدهم يصابون بالجملة . وفكر بدري ضاحكا مع نفسه : ان البطاطس تسبق الطماطم والبيض لانها لا تعطب . اندفع بدري مع الآخرين بدافع العنوى : لا بد ان الحدث هام . وراى جمهورا غفيرا هناك : تدافع .. دمدمات .. اسئلة .. تحريات .. احتكاك امامي بخلفية الشابات . وراى بدري جسدا مقطى الى النصف بقطعة من الخيش ، والى جانبه جثة دجاجة لا اثر للدم حول عنقها .
- من مات ؟

- شيخ اسمه بشير . راوه يترنح قليلا ويهوي قبل ان يتلقفوه . واحس بدري حرقانا يؤلمه في صدره : لقد مات اخيرا موته هو ، وليس من اجل الآخرين . فهكذا سيقولون عنه . لان اسفهم لا يثار الا على من يموت من اجلهم . ولكن الامر منساو ، فهم ايضا لم يتحملوا حتى مشقة التفكير فيه : جعلوه يفقد انسانيته ، ولكن على الانسان ان يحتك بهم بالرغم منه او منهم ، وتحمل شرهم الصريح ، حتى ولو ولدت معه عداوة رفضهم ، والحقد عليهم .
- ما اسعده ! مات دون ان يتألم .

- ولكن الالم بلغ اقصاه ، فهو عاش وحيدا . ويكفي ان يشمر

الانسان بالوحدة ليتألم ، حتى ولو وجد نفسه بين الآخرين .

- والدجاجة الميتة ... ؟
- لا بد النقطها ليأكلها . فهم يقولون بانه يطبخ حيوانات مية مع بقول الاموات .

- او ليدفنها في المقبرة كما يفعل بالقطط والكلاب .

- لا . انه يكره الكلاب .

- هل له احد من عائلته ؟

- ربما ... ولكن ماذا يهم الان العائلة ؟ ان كل شيء ينتهي

هنا .. منذ اللحظة التي سقط فيها .

- لا بد انه مات بالذبحة الصدرية . التشریح سيكشف عن

ذلك . ان الطعام الرديء الذي يأكله قد سممه .

- حتى هذا ايضا لا يهم . لانه لم يعد هناك مجال للانقاذ . ان

الانسان لا يموت او يحيا مرتين .

- نعم . وهو ايضا ليس الا مثل احدى القطط التي دفنها ، او

كتلك الدجاجة التي لم يأكلها بعد .

وظهر شرطيان فانفسح لهما الطريق . وتكف احدهما بابصار

الجمهور ، بينما اتجه الاخر نحو الجثة . انحنى الشرطي على الكتلة

ورفع الفطاء عند الرأس . وتأمل جيدا .. ثم ازاح الفطاء السى

النصف . اخذ معصم بشير في يده فاذا هو يتحرك :

- ولكنه لم يزل يحيا .

ازاح الشرطي قطعة الخيش جانبا . واقترب الشرطي الاخر من

زميله :

- لا بد انه اغمي عليه فحسبوه ميتا .

- لقد اخطاوا جس النبض .

وحدث بين الجمهور اندعاش ولفظ وهم ينظرون قيام الميت ،

وبان على بعضهم انهم مستعدون للفرار اذا تضخم الرعب .

- هاتوا الماء .

وصاحت عجوز :

- ضعوا مفتاحا في يده .

- انها لم تظهر عليه نوبة الصرع يا سيدتي ...

- ولكن لن يضره مفتاح في يده .

وفكر بدري : يا للمجوز ... ان قولها يذكرني بمجزز الانسان

وغبانه . انها عجوز اليوم ، اما عجوز الفد فلن تقول مثل هذه البلادة

البريئة . سيكون اذ ذلك قد ولد انسان فريدريك ننتشه ، وهربرت

جورج ويلز ، والدوس هكسلي ، على حقارة تنبؤاتهم في نظر المخبريين .

واخذ الشرطيان بشير من ابطيه وفخذييه واستندا ظهره السى

الجدار .

وظلت عيناه مسبلتين ، وفمه مزموما ، ويده متدليتين .

- ها هو ذا الماء .

واخذ الشرطي الكوب وادناه من القم المزوم الرخو . واجفل

بشير قليلا . ثم يشرب ... ويفتح عينيه . وبدأ يستعيد وعيه ..

وحرك ذراعيه .

- لو انهم وضعوا قطعة زجاج على فمه ، وانفه ، لما اخطاوا .

- سيظل يوعب الناس اذا عاش .

- واذا مات فقد مات من قبله الانبياء .

- سينظرون اليه كشيخ وهو يسير بينهم .

- ان الناس لا يدرون بعد حتى متى يموت الانسان حقيقة !

وفكر بدري لنفسه : ان مجرد مروره امامهم سيوحى لهم بانهم

انما يرون الموت يمشي في جسد حي . ترى كيف سيحيا امرؤ بين

اناس وهو ميت في وهمهم ؟ يا للوهم الذي يتلع الحقيقة ! قص علي

انريكي : « ان قيام سنير اميليو الحلاق من نضه هو الذي كون

لي عقدة الموت .

فمجرد رؤيتي جعازة .. او ذهابي الى المقبرة للترحم على اضرحة

اسرتي .. يكفي ذلك ليسلمني الى الفراش بضع ساعات ، وانا في حالة رعب ! الشموع .. البكاء .. المناويل .. السواد .. فترات الصمت التي تتخللها كلمات تذكر بمحاسن الفقيده .. وحضور في الصباح حيث جيء بالتابوت . ان احكام براغي النمش لم يزل يطن في مسمي (طراق .. طراق .. طراق) الموكب الكبير هو ايضا مائل في ذاكرتي . ركبنا في السيارات . ولدى باب مقبرة بوبانا تقدم الى التابوت اربعة .. يا الهي ! ان لحظة الرعب لم تزل صارخة : طار غطاء النمش ، وسمنا اميليو يصرخ : (اين انا .. يا الهي .. اين انا ..) .

وتكور الناس على بعضهم .. ووجدتني في السياح بلا حذاء . ان الشجاعة تموت في ارواح الناس في مثل هذا الحادث ! تصور انسانا واحدا يطارد بلا هدف ظابورا من الناس . رأيت بعضهم يمشي عليهم . ولا بد انه اصطدم ببعضهم من غير ان يؤذي احدا . فاية افكار تحظر لانسان يقوم من الموت ؟ من المحتمل انه حائف مثلهم . ولكنه ليس مطاردا من احد . الخوف يطارد الخوف . يا لهزلة الانسان . انه خوف الخوف : عملاق اللامعقول الذي لم يتعود الناس بعد على رؤيته . ويوم يتعودون فلن يخافوا من استهماية الموت الذي يمسرح في اعماقهم كطفل اهوج . وفي نهاية المقبة توقفت . طلبت زجاجة ليمونادا من بقال . ولكنه حين سمع عن قدوم الميت - الحي - اسرع يفلق دكانه ، ناسيا ثمن المشروب . ورأيت الشبح اللاهث يبتثق خلف المفروعين . فاستانفت سباق الرعب مع من لحقوا بي . وفي السوق الكبير نظم الشرطة الطريق الذي يمر منه اميليو . توقفت حركه المرور تماما زهاء خمس دقائق . وظهر السواد . وبدأ صراخ بعض النسوة فضض رجال الامن عليهن . يا لسواد اميليو ببذلته ، وجورييه ، ورباطة عنقه ، ووجهه الليموني ، ورأسه الاصلع . وقفت مع الاخرين . وسمعت الشرطة يقولون للناس : انكوه يمر بهدوء .. لا ترعبوه .. سيمر كل شيء بسلام .. ومر اميليو وهو يقالب تعب ورجبه .. وحفده .. ونصورت انه سيقول لن اشرفوا على اعداد الدفن : (لماذا تعجلون بدفن موتاكم ؟) .

من ذلك اليوم وانا اعاني عفدة الموت .

وبعد ذلك المقيت به مرارا . وناداني مرات : (انريكي .. ايه انريكي) . ولكنني لم احاول قط ان ارد .. اسرع خطواتي ولا التفت .. وظللت فترة طويلة وانا اتخيله يباغتنني من الورا : (نعال هنا .. لماذا لا ترد .. ؟ التفت الي على الاقل . اولم تعد تعرف صديقك .. ؟ اني اتكلم معك يا انريكي .. انا صديقك اميليو فلا تخف مني . انا لم امت بعد .. يجب الا تقتلني وانا حي . انا ...) . ان مجرد رؤيتي اياه يسبب لي ضغط الدم العالي . وظلت فكرة لحاقه بي تعذبني طويلا وهو يقبض على ذراعي وهميا من الخلف : (تعال هنا يا انريكي .. التفت الي ايها الخائف .. الجبان ...) .

ولكنه لم يفعل . وربما فهم نفسه . او امله اشفق على خوفي . وحدث له نفس الشيء مع الكثيرين مثلي ! فقد انقطع عنه كثير من زبائنه . ان بعضهم يقبلون قدمي الميت فيزول شعور الخوف من الموت ، والاموات . ولكنني كيف براني اقترب من ميت بعد ما رأيت ؟ انه لم يزل يحيا الى اليوم : ٢٩ نيسان ١٩٦٧ . واكتسب زبنا اخرين .. وسمعت انه يحذر اهله بجنون بين الحين والآخر . فهو يلج عليهم ان يطبقوا ويحترموا كل واردة في وصيته التي اعاد كتابتها حتى لا يخطوا : (ثلاثة ايام تحت اشراف اخصائي في داء الذبحة .. ثم رحمة الله على من لم يسفنه الحظ ثانية) .

هناك اخرون اغلقت عليهم التواييت ، واحكم دق البراغي ، ولكنهم لم يقوموا . وفكر بدري : اما انا فمندي مناعة ضد الخوف من الموتى ، لاني نمت فوق الاضرحة في مقبرة (بوعاراقيا) وانا في حوالي العاشرة .

ووصلت سيارة الاسعاف فنزل رجلان . وخطب الشريطي بشير :
- سياخونك ليعالجوك .
وحدث بشير في الاسعافيين لحظة باستسلام ، ثم تركهما ينهضانه من ابطيه . وحدث لفظ بين الجمهرة كالاصوات التي تصدر عن موجات الراديو الخارجية .

- لا بد انه الان يعرف سكرة الموت .
- يا للناس . ان الرجل اغمي عليه ، ومع ذلك فهم يصرون على انه فائم من الموت .

وصعد بشير الى سيارة الاسعاف .
- اذا مات من جديد ، فانه قد مات من قبله الانبياء .
- لا تقل هكذا . انه مسكين طيب .
- انت لا تعرف شبابه .

- ان الحكم على الانسان ليس من اجل ماضيه ، انما على ما هو سلوكه الان ..
- وما هو الان ؟

- انه ليس لا طيبا ، ولا سيئا . انما هو لا يؤذي احدا فقط ، وهذا يكفي لتعامله كانسان .
- ولكنه شاذ .

- كلنا هؤلاء الشواذ ، ولكننا نتفاوت .
- ماذا يحدث لو ان دجاجته تقوم هي الاخرى ؟
- سيفمى على بعضهم ، ويفرون كالفئران ، وربما جن بعضهم للحظة : صراخ .. تدافع .. سقوط .. جروح ...

ودفع الشريطي جثة الدجاجة بقدمه الى جانب الافريز . وصعد الشريطي الذي تكلف بكتابة التقرير مع بشير .
وصاح الشريطي الذي ظل هناك :

- والان ، هل ننظرون ان يمشي على احد اخر ؟
ونظر بعضهم اليه وهم يتسّمون . واقلعت سيارة الاسعاف .
وبدا الناس يتحركون . وبدأ ان كثيرين منهم ما زالوا يتوهمون ، ويندهشون ، ولا يصدقون .
طنجة (المغرب)

محمد شكري

صدر حديثا

تأثر وحب

ديوان شعر

للدكتور ابو القاسم سعد الله

دار الاداب